إلى الأخ الدكتور زكى نجيب محمود:

لماذا أغفلت الجزء الخطير من مفهوم العلمانية وهو فصل الدين عن الدولة

احتفلت بمقال الدكتور زكى نجيب فى «الأهرام» ٨٤/١٢/١٧ عن العلمانية (بفتح العين) كما أراد، لأننى تعرضت لبحثها فى كتاب جديد لى تحت الطبع عن «الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء» وتطلعت إلى أن أكسب جديدًا مما يكتبه الأخ العالم الدكتور زكى.. فوق ما قرأته من قبل فى عدة مراجع عنها وما دار خلال ندوة إسلامية فى تونس عن «واقع الإسلام وتحديات العصر»، بينى وبين بعض الأساتذة التونسيين والمغربيين الذين اشتركوا فى الندوة فى شهر نوفمبر الماضى ١٩٨٤ عن «العلمانية»، وعن كلمة جديدة فرنسية سمعتها لأول مرة منهم، وهى كلمة «لييك أو لاييك» Laigue، وهى قريبة المعنى من كلمة علمانية المترجمة عن الكلمة الإنجليزية Seculsrism والعلمانى Secular.

معنى العلمانية:

ولقد وضعت هذه الكلمة «العلمانية» فى أوربا، لتعبر عن اتجاه جديد أدى إلى قيام الثورات الفرنسية على سلطات الكنيسة والملوك والإقطاع، والتحرر من سلطة الكنيسة خاصة، ومن فرضها علمها واتجاهها الفكرى على المجتمع الأوربى، فلا يستطيع أحد التفكير وهو سالم من العقاب إلا بمجاراة العلم أو الفكر الكنسى الجامد الذى يرفض أى جديد..

وحين انتصرت الثورات، وانتصر المفكرون والفلاسفة والعلماء على سلطان الكنيسة، وتألفت حكومات الثوار اتخذوا اتجاهًا مضادًا لها، ولسيطرتها، كرد فعل للماضى، وهو فى أدنى درجاته وأخفها: عدم التقيد بأى رأى دينى فى تفكيرهم،

والانطلاق فى الحياة إلى ساحة العقل والعلم، دون أى قيد دينى عليه ولو عارض الدين.. فكان روح هذا الاتجاه: عزل الدين نهائيًا عن الحياة العامة، والحيلولة دون تدخله فى أى شأن من شئونها، أو تنظيم من تنظيماتها، والسير وراء العقل والفكر البشرى المحصن..

هذا الاتجاه هو الذى أطلق عليه هناك Secularism وعربناه «بالعلمانية».. فكانت مقابل وضد الاتجاه الدينى الكهنوتى الذى كان سائدًا ومعروفًا فى أوربا الكاثوليكية على الأخص، فى عهد سلطان الكنيسة المظلم.

وقد أتيح لأوربا بعد أن تحررت من سلطان الكنيسة، وانطلق علماؤها وراء بحوثهم دون قيد، أتيح لها أن تنهض وتتقدم، فتأصل بذلك وقوى عندهم الاتجاه إلى فصل الدين عن الدولة وتنظيماتها والانطلاق فى الحياة دون أى اعتبار للدين..

ومن هذا الاتجاه تولدت أيضًا المادية التى لا تعترف بدين أو إله، وكان لها فلاسفتها ودعاتها..

فكانت «العلمانية» فى أخف درجتها وأولاها تعنى: عزل الدين وإبعاده نهائيًا عن التدخل فى شئون الدولة، وتنظيمها للحياة والانطلاق مع ذلك فى العلوم والتنظيمات وراء العقل، وما يراه حسنًا، ولو على حساب الدين.. فلا مكان للدين فى الحياة وشئونها.

ومن دعاة العلمانية وأنصارها من اكتفى بتحجيم الدين وعزله، وقصره على داخل الكنيسة فى أمور خاصة كالزواج والطلاق، ومنعه من أن يطل برأسه خارجها ويبدى رأيا فى أن هذا جائز أو غير جائز.. لأن الرأى فى هذا أو ذاك من شئون الحياة، إنما هو للعقل والعلم وللدولة، تمكينًا وتقوية للنظرة العلمية الإنسانية العالمية فى اختيارها ما يجوز وما لا يجوز لا لرأى الدين ورجال الكنيسة:

ومرت بمراحل:

وكانت هذه هى المرحلة الأولى للعلمانية، وأطلق عليها «العلمانية المعتدلة»، لأنها لم تنكر الدين نهائيًا بل اعتبرته أمرًا شخصيًا، لا شأن للدولة به، وإن كان لا مانع من أن تساعد الكنيسة أحيانًا فى مثل جمع ضرائبها، وإعانتها على تخطى العقبات أمام وجودها.. لكن على أن تظل فى دائرتها المحدودة بعيدة عن الدولة وتنظيماتها..

ويقول الدكتور محمد البهى أستاذ الفلسفة فى جامعة الأزهر رحمه الله فى كتابيه «الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر، مشكلات الحكم والتوجيه، والعلمانية والإسلام، بين الفكر والتطبيق»، إن هذه المرحلة الأولى المعتدلة، كانت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ثم جاءت المرحلة الثانية وهى مرحلة «العلمانية الثورية»، التى تأثرت بالعلمانيين الماديين، والتى حمل لواءها «ماركس» و «أنجلو»، خلال القرن التاسع عشر.. وكان هدفها هدم الدين نهائيًا، فلا إله، ولا رسل، ولا دين، ولا حياة أخروية، ولا تنظيمات دينية.. إلى غير ذلك من مبادئ الماركسية المادية التى أقام عليها نظريته، والتى أصبحت معروفة..

وبذلك تطورت «العلمانية» من معايشة الكنيسة، ولكن داخل حدودها، فتكون هناك سلطتان: سلطة الدولة فى حكم البلاد، وسن الأنظمة والقوانين بعيدًا عن رأى الكنيسة، والانطلاق وراء العقل والعلم فى تنظيم الحياة... وسلطة الكنيسة المحصورة داخل إطارها فى مسائل خاصة..

تطورت العلمانية وخطت خطوة أوسع، إلى عدم الاعتراف بالدين وهدمه نهائيًا حتى لا يبقى فى المجتمع إلا سلطة واحدة هى سلطة الدولة فى كل شىء، حتى فى الزواج والأحوال الشخصية عامة، كما فى الدولة الشيوعية..

ونرى من هذا أن العلمانية، حتى المعتدلة ليست هى مجرد انطلاق العقل وراء العلم بلا حاجز أو مانع فحسب - كما قدمها الدكتور - بل هى مع ذلك وأولا:

إنكار أن يكون للدين أى وجود أو سلطة يتدخل بها فى شئون الحياة؛ وتنظيماتها.. وهذا أعنى فصل الدين عن الدولة، وإبعاده عن شئون الحياة، وتنظيماتها، هو ألف باء العلمانية..

ولذلك يعرف الدكتور البهى الاتجاه العلمانى بأنه «الإيمان بوجوب تنحية الدين وإبعاده عن الدخول فى أى شأن من شئون الدولة، وعلى وجه أخص فى التربية «الفكر الإسلامى» ص ٤٨٤.. وهذا ينطبق على العلمانية المعتدلة لأن المتطرفة الماركسية لا تعترف بإله ولا بدين» ونرفض - كما يقول الدكتور البهى أستاذ الفلسفة فى جامعة الأزهر - أية صورة من صور الإيمان بالله، والعبادة».

عرفها تعريفًا ناقصًا:

وبعد هذا البسط الذى رأيته ضروريًّا للقارئ لكى أضع أمامه المعنى الصحيح للعلمانية، أعود إلى ما كتبه الأخ الدكتور زكى نجيب، فأرى أنه قد اقتصر فى توضيح «العلمانية»، وركز على أنها تعنى فحسب انطلاق الغرب إلى العلم يعب منه عبًّا، حتى نهض وقوى، ورتب على ذلك أن هذا لا يخيفنا منها ولا يجوز لنا أن نقف فى وجهها، لأن الإسلام يدعو إلى العلم و.. و.. إلخ..

وأغفل نهائيًّا الجانب المظلم الخطير على الإسلام من «العلمانية»، حتى المعتدلة منها كما عرفت من قبل..

وهو فصل الدين عن الدولة، وعزله نهائيًّا عن التدخل فى شئون الحياة.. أو هدمه من الأساس، كما تدعو العلمانية المتطرفة.

أغفل هذا الجزء الخطير من تعريف العلمانية وتوضيح معناها، مع أنه جزء أصيل فى معنى العلمانية، وفى مكوناتها وواقعها، كما ترى، وعند كل الذين كتبوا عنها..

فلماذا أغفل صديقنا العالم الذى له تلامذته الكثيرون، ويتحمل أمانة التوجيه لهم، وكل الذين يقرءون له، لماذا أغفل هذا الجانب المظلم الخطر فى العلمانية؟ واقتصر على الجانب المضىء - مع بعض تحفظاتنا عليه كمسلمين - إذ لا يجوز فى نظر الإسلام أن ينطلق العلم والعقل دون تحفظ ليدمروا فى طريقهما

العقيدة، والمبادئ الدينية والمسلمات والفروض الأولية التى جاء بها القرآن والحديث، كما يفعل المغرمون بالعلم التجريبى وحده، وبالعلمانية..

لماذا أغفل صديقنا العالم هذا الجانب الذى من أجله أصلا نقف ضد العلمانية، فنحن لا نقف ضدها لأنها تدعو إلى العلم - مع تحفظاتنا كما قلنا - ولكن لأنها تدعو إلى تحنيط الأديان فى متحف، وبخاصة الإسلام، الذى تعتبر تنظيماته للحياة فى جوانبها المختلفة جزءًا من الإيمان بالله ورسوله.

ويدان كل مسلم بالارتداد إذا أنكر وجحد تنظيمًا من تنظيماتـه، ولا يقبل من داخل الإسلام إسلامه إلا إذا آمن بهذا التنظيم، كما جاء فى القرآن والسنة ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

وإذا كان الدكتور زكى يسخر من الذين يقفون ضد هذه العلمانية ويرفضونها، فهل يعنى هذا أنه علمانى ينادى بما تنادى به العلمانية، من عزل الإسلام عن الحياة، ووضعه فى متحف، ويرفض أن يعمل المسلم أو تعمل الدولة بتعاليمه، وأن تدرسه للطلاب وأن تحتضن القرآن، وتشجع على حفظه، وتحتضن المساجد، وتنفق عليها، والأزهر وقيامه بالحفاظ على الدين، ولا تنفق عليه مليمًا، لأن ذلك كله ليس من العلمانية.

ويرفض تقنين الشريعة للعمل بها فى الحياة، ويرفض أن يكون الإسلام دين الدولة - كما جاء فى الدستور - وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع والقانون؟.

لأن ذلك الرفض هو النتيجة البدهية لما تعنيه العلمانية فكرًا وتطبيقًا، من فصل الدين عن الدولة وتنظيماتها، وإبعاده عن التدخل فى شئون الحياة نهائيًا؟

لا أظن أنه كذلك أبدًا، لكن لماذا يسخر من الذين يقفون ضد العلمانية، وهذه هى حقيقتها؟ ويقف فى بيانها للقراء عند الجانب الطيب، وهو دعوتها للعلم، ويخفى موقفها من الدين؟

وهو موقف خطير على الإسلام. ولذلك أطلب من الأخ العالم أن يعود فيكتب لقرائه عن العلمانية ومعناها الكامل عند الذين نشأت بينهم، وبأفكارهم

وسلوكهم، أريد منه أن يعرفها التعريف الذى يقول به فلاسفة العلمانية ومفكروها وواضعوها، ويذكر لنا كيفية تطبيقاتها فى الغرب، وفى الشرق الشيوعى الماركسى.. ولا يُخفى أو يختزل جزءًا من تعريفها ومعناها، كما فعل فى مقاله.. لا أطلب منه سوى ذلك، وهذا حق القراء عليه، وهو حر بعد ذلك فى أن يشيد بها ويسخر من الذين يرفضونها.. هذه نقطة.

أما الثانية: فهى أننى فى الملتقى الفكرى الذى حضرته فى تونس، الذى اشترك فيه أساتذة تونسيون ومغربيون مثقفون ثقافة فرنسية عميقة، بجوار عربيتهم، تحدثوا عن العلمانية (بكسر العين) وقالوا: إنها منسوبة إلى العلم التجريبى، الذى ساد الإيمان به فى الغرب، مع رفض الدين والغيبيات التى لا يقرها العلم التجريبى، وهو الاتجاه المادى الصرف فى الغرب الذى تحتضنه وتقوم عليه العلمانية.

فلا أظن أن هناك ما يستحق كل هذا التجهيل والتهويل للذين ينسبونها للعلم بكسر العين، بمفهومه عندهم بل هو أقرب وأبعد عن التكلف فى نسبتها للعالم والمؤدى واحد فما رأى الدكتور زكى فى هذا؟

أما الثالثة: فهى أنهم تحدثوا فى بحوثهم ومناقشتهم أمامى عن اتجاه غربى علمانى أيضًا يطلق عليه «اللايكية» من لاييك Laique بالفرنسية، وفرقوا بين «العلمانية واللايكية»، بأن العلمانية تطورت لتتخذ موقفًا معاديا من الدين ومؤسساته، أما «اللايكية» فتعنى وقوف الدولة موقفًا محايدًا، بمعنى أنها لا تأخذ بالدين ولكنها تترك شأنه للمتدينين ورجال الدين، يقيمون مؤسساته ويعملون له، لكن لا يمتد عملهم إلى التأثير على الدولة وأنظمتها..

فالمهم عند الدولة ألا يكون للدين ورجاله تأثير على تنظيمها لشئون الحياة، وليعمل أهل الدين للدين فيما عدا هذا المجال.. هذه هى اللايكية، وهى شبيهة بالعلمانية المعتدلة.

والأساتذة الجامعيون التونسيون لهم اطلاع وتأثر أكثر بالثقافة والتيارات الفرنسية خاصة والغربية عامة، فما رأى الدكتور فى هذا أيضًا؟ نريد أن نزداد

علمًا من أهل الذكر فى التيارات والمفاهيم الغربية..

لأننى لم أقرأ عن اسم «اللايكية» ولم أسمع به قبل أن أسمع الدكاترة التونسيين والمغاربة.

أما العلمانية فإنه يكثر الحديث عنها بيننا، وتكثر الكتب التى توضحها أمامنا..

وفى انتظار رأى الصديق الذى أعتز بخلقه، وأعجب بالكثير مما يكتبه.. ا. هـ.

ولم يرد الدكتور زكى، ولكنه سكت.. وكنت أود أن يجيب ويوضح.

ولم أكن وحدى:

إذ لا بد مع ذلك من الإشارة إلى ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت فى ركنه اليومى بالأهرام «صندوق الدنيا»، وهو كاتب مسلم واسع المعرفة له ولاءه العميق لدينه وقضايا أمته، كتب يستنكر ما كتبه الدكتور فى موضوع «الغزو الفكرى» واستهزائه بمن يحاربونه، ثم كتب يعلق على ما كتبه الدكتور أيضًا عن «العلمانية»، كما كتبت ردى على كلامه عن الغزو الفكرى أيضًا[1] الذى بدأه بالسخرية ممن يحاربون الغزو الفكرى قائلاً: إنه لا يوجد غزو ولا مهاجمون، ولكن يتم كل شىء باختيارنا، ولم يجبرنا عليه أحد، فهو إذن أمر حسن ومقبول عنده !!.

قال الأستاذ أحمد بهجت تحت عنوان «الغزو الثقافى» فى أهرام ١٩٨٤/١٢/٢١:

---

(١) ونشر فى ١٩٨٤/١٢/١٣، ونشر ردى فى صحيفتى «الأهرام والأخبار» معًا فى يوم واحد هو يوم الخميس ٢٧ ديسمبر ١٩٨٤.. تحت عنوان «الغزو والاستغزاء» مبينًا خطر الذين يستوردون منا أسلحة الغزو عن أعداء الإسلام فى الغرب، ويهاجموننا بها من الداخل ويمثلون دور «الطابور الخامس» فى المعارك الحربية، فلسنا واقعين بذلك تحت أسلحة الغرب مباشرة، ولكنا واقعون تحت الأسلحة الفكرية المستوردة التى استوردها رجال منا تأثروا بالغرب وأفكاره، وأخذوا يقومون بدوره داخليًا، من خلال مراكزهم المرموقة فى أجهزة الإعلام، أو أجهزة الدولة أو غيرها، فكانوا أخطر علينا من العدو الظاهر الخارجى.. هو يقوم بعملية الغزو، وهم يقومون نيابة عنه بعملية «الاستغزاء» الذى يمثل استيراد أسلحته واتهاماته الفاسدة للإسلام، ليطعموها للأمة، تمامًا مثل المستوردين للأطعمة الفاسدة التى يروجون لها بيننا..

«سألنى قارئ فاضل: ما هو جوهر الغزو الثقافى ومشكلته، وما هو جوهر العلمانية وهدفها؟

قلت له: مشكلة الغزو الثقافى هى الرضا بالغزو، واعتباره نعمة لا مأساة، والغزو الثقافى يعنى السيطرة على أفكار العدو واحتلال وجدانه، وتوجيهه من الداخل، دون أدنى إشارة إلى أنه عدو، وآثار الغزو الثقافى فى حده الأدنى إعجاب يدعو للتقليد، وفى حده الأقصى فقدان للشخصية وللسان، وتختلف طبيعة الغزو الثقافى عن الغزو العسكرى، فعلى حين يتم الغزو العسكرى بالسلاح والقهر والإلزام والإجبار، يتم الغزو الثقافى بنعومة القصيدة، وجمال الموسيقى، ورقة الأغنية، وإحكام المنهج، وإنسانية الفكر، فإذا مر الوقت، نسى المحتل منا أنه محتل، بل صار سعيدًا بوهم انتمائه لهذا الوجود الحضارى المتقدم، ويسقط منه فى أثناء هذا كله جوهر ثقافته، بما تضمنه من معتقدات وتصورات، يقنعه الغزو الثقافى أنها هى التخلف، وأن عليه أن يتخلص منها، وبسقوط الثقافة تضيع الشخصية.

ولقد تطور فن الغزو بتطور الحياة، فالحرب التقليدية بأسلحتها الدامية تثير التحدى، وتوقظ المقاومة، وتستفز الشعور بالعداء، أما الغزو الثقافى بنعومته فيتسلل، وهو يرتدى ثياب الفارس المتحضر الذى جاء ينقذ الدهماء من التخلف.

وهدف الحرب العسكرية هو كسر إرادة العدو، أما هدف الغزو الثقافى فهو تذويب إرادة العدو، وإقناعه أن يفكر مثلنا، ويسلك سلوكنا، وهذا أفضل..

وتحت ستار فكرة التقدم، يصير مطلوبًا من الأمة أن تنسلخ عن جوهرها، ولسوف نسمى هذا الانسلاخ بالتقدم.. ولن يتحدث أحد هنا عن التبعية أو السيطرة الفكرية!!

إن هذه الكلمات كلها ممنوعة من التداول فى الحرب الثقافية، والغزو الثقافى ليس وهمًا، إنما هو أمر واقع نراه فى حياتنا، ولقد غزيت أفريقيا ثقافيًا، وغزى الشرق الأقصى ثقافيًا، ووضعت القضية أمام الأفريقى ملخصة فى سؤال يقول: هل تريد التقدم؟ إذن ينبغى أن تكون امتدادًا للأوربى.

وحبذا أن يولد الزنجى الأوربى بديلاً عن الزنجى الأفريقى، إن بقاءك كأفريقى أسود، يعنى بقاءك على التخلف وهكذا طلب الغزو الثقافى من الأفريقى إلقاء ثقافته وتقاليده فى البحر، كجواز لمروره إلى التقدم، وعرضت علينا القضية نفس العرض، فى الشرق قيل لنا: «إن طريق التقدم الوحيد هو أن نلقى بثقافتنا وديننا فى البحر، وهذا يعنى أن تذوب شخصيتنا، ونفكر كما يفكر الأوربى، وننسلخ من جوهرنا إلى الأبد».

هناك فقط نستحق الحياة.. هذا هو جوهر الغزو الثقافى، فما هو جوهر العلمانية؟» اهـ.

وكتب فى اليوم التالى ٨٤/١٢/٢٢ عن «العلمانية» يقول:

العلمانية:

انعقد مؤتمر من جهابذة الفلاسفة ليناقش القضية الخطيرة التالية.. أيهما سبق الآخر؟ هل سبقت البيضة الدجاجة، أم سبقت الدجاجة البيضة، وقدم فلاسفة حزب البيضة الدليل على أنهم هم الذين سبقوا، ولكن فيلسوفًا من حزب الدجاجة نهض وهو يكاكى وقدم الدليل على أن الدجاجة هى التى سبقت البيضة، وفى أثناء انعقاد المؤتمر الفلسفى الخطير كانت أقدام الغزاة تدك حصون المدينة وتقتحمها»[١]

«لا أعرف لماذا تذكرت هذه الحكاية، وأنا أقرأ مقال الدكتور زكى نجيب محمود (ع - فتحة - عا) إن المقال يتساءل: هل العين فى العلمانية مفتوحة، أم مكسورة إن العين المفتوحة تعنى العالم، أما العين المكسورة فتعنى العلم، والصحيح أن العلمانية تقرأ بفتح العين لا بكسر العين، وفتح العين شىء لطيف.

أما كسر العين[٢] فالعياذ بالله. ولقد صحح لنا الدكتور حقيقة الموقف من الناحية الشكلية التشكيلية، ولقد انتظرت أن أقرأ بعد هذا البحث الشائق سطرًا

(١) وهى «بيزنطة» عاصمة الدولة الشرقية الرومانية، وبعد أن فتحها السلطان العثمانى محمد الفاتح جعل اسمها «إسلامبول» وهى التى ننطقها الآن: إستامبول.

(٢) تستعمل عبارة «كسر العين» عند الشعب للدلالة على الخزى والمهانة والكاتب الأستاذ أحمد بهجت كاتب ظريف خفيف الظل يطعم كلامه عادة بمثل هذا..

واحدًا أو سطرين عن جوهر العلمانية، سواء كانت بفتح العين أو بكسرها.. ولكننى لم أجد ومن ثم حثثت نفسى على استكمال البحث».

«إن جوهر العلمانية هو فصل الدين عن الدولة:

وقد صارت هذه القضية فى أوربا حين تدخلت الكنيسة فى العلم والحياة معًا، وحاكمت العلماء مثل جاليليو وغيرهم، واعتبرت آراءهم فى العلم هرطقة دينية وكفرًا، ومن ثم عَوقتِ تقدم الحياة، ولهذا استقر الرأى على أن فصل الدين عن الدولة، إنقاذ للدولة من جمود رجال الدين، ومن موقفهم المتزمت من الحياة والعلم».

«والقضية بهذا الشكل الذى أثيرت به فى أوربا ليست واردة فى الشرق المسلم، لأن الإسلام هو العلم الكلى، الذى يحتضن كل أنواع العلوم الجزئية، ويوفر لها المناخ الصحى الذى تنمو فيه، حتى يتم للإنسان هدف عمارة الأرض والاستخلاف فيها.. هذا جوهر العلمانية فى أوربا، وهذا هدفها: لفت الانتباه إلى العالم والعلم والتقدم».

«والعلمانيون فى الغرب معروفون، ولهم دورهم فى دفع عجلة الحياة، أما العلمانيون فى الشرق فعقول انبهرت بوهج الحضارة الأوربية، وانتصاراتها وإنجازاتها، فتصوروا مخطئين أن الحضارة الأوربية هى الحضارة الإنسانية الوحيدة فى العصر، وعلى من يريد أن يتحضر أن يلحق بها ويذوب فيها، وينطبع بقسماتها وسماتها، ويعطى ظهره للتراث، ويولى وجهه شطر الغرب»

وهؤلاء هم الغلاة من دعاة التغريب، وهم يرون أن علينا أن نعطى مالقيصر لقيصر، وما لله لله، المشكلة عند غير العلمانيين، أن قيصر نفسه بكل ماله، مملوك لله».

«القضية إذن محيرة، ولكن لها أسبابها فى الساحة، وهى أسباب سنرى كيف يتناولها دعاة التجديد».

وفى يوم الجمعة ٤ يناير ٨٥، كتب الأستاذ الفاضل «أحمد موسى سالم» كلمته

الأسبوعية فى «الأخبار»، وهو كاتب قدير، مرابط فى خندق الدفاع عن الدين والوطن طوال حياته، كتب كلمة طيبة يعلق فيها أيضًا على الدكتور زكى دون أن يذكر اسمه وترك ذلك للقراء يفهمون من يعنى بكلامه هذا:

وقد كان عنوان مقالته «الإسلام دعوة عالمية، والعلمانية دعوة للتبعية» أرى من المستحسن أن أضعها أيضًا أمام القراء هنا.. كتب - جزاه الله خيرًا - يقول:

«اليوم.. وفى مواجهة هذه الشوائب العلمانية الطارئة فى بلادنا، لا يخالجنا الشك فى انقشاع جميع غواشيها، حول هذا الطريق الإسلامى المفتوح لصحوتنا ولتقدمنا.. فالإسلام فى مصادره الصحيحة والباقية فى القرآن والسنة، هو الدعوة العالمية المتجددة لجميع البشر، إلى ما تشرق به شريعته من حقوق الإنسان ومنهج العلم، وصالح العمل.. وليست العلمانية، كما يدعى بعض العلمانيين، هى فى أية صورة من صورها، هذه الدعوة الجديرة بالعالمية فى حياة الإنسان، حتى وإن قالوا إن كلمة «العلمانية» فى اصطلاحها الخاطئ لغويًا لا يصح نطقها إلا بفتح العين، للدلالة على هذه «العالمية» المدعاة.. والجواب التصحيحى لهذه الادعاءات العلمانية فى بلادنا، هو أنها مجرد دعاية هزيلة إلى «التبعية» للغرب، قد تؤدى إذا نجحت إلى تنحية الدين عن الدولة.. مما يؤدى إلى فتح الطريق إلى مخططات الغرب فى بلادنا، باتجاه تمزيق وحدتنا، ونهب مواردنا.. برغم أننا لا نتردد فى أن نلتزم - بغير انحياز - بسياسة الوفاق الحضارى مع الغرب، لو أنه التزم فى المقابل، بالكف عن سياسته الظاهرة والخفية لتمزيق وحدتنا، وتعويق تقدمنا»

«وأذكر بهذه المناسبة أننى كتبت حول معنى هذا الوفاق منذ سنوات «رسالة إلى الأوربى المعاصر» كان قد طلبها منى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، برئاسة الزميل «الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى»، وقد تم إرسالها إلى أحد المنادين بمثل هذا الوفاق الإنسانى والحضارى مع المسلمين، بين قلة من المنصفين فى أوربا، وكان قد طلبها برسالة منه إلى هذا المجلس»..

«والآن ماذا عن جذور هذه العلمانية فى حياة الغرب المعاصر.. كيف نشأت..

وما الذى انتهت إليه.. وما هومدى التناقض بينها وبين حياتنا وآمالنا المعاصرة ؟».

«أنقل هنا بإيجاز، رأى الزميل الأستاذ محمد مصطفى غنيم نائب رئيس التحرير بجريدة الأخبار، ورئيس قسم الترجمة بها:

«نشأ المذهب العلمانى فى أوربا خلال القرن السادس عشر، وذلك بعد أن استفحلت سيطرة رجال الدين فى مختلف دولها.. وكلمة «سكيورالزم»، أو «العلمانية» فى لغتهم، تعنى فى أساسها هذا النزوع إلى الانتماء لُلعالم، فى نظام من المعتقدات التى ترفض أى شكل من الأديان، وتقرر فصل الدين عن الدولة، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم العام».

ثم يمضى الأستاذ محمد مصطفى غنيم بعد هذا التعريف التاريخى للعلمانية فيقول: «إن هذا المذهب الذى ساد الدول الأوربية وغيرها فى العالم المعاصر لا مكان له فى مصر، أو أية دولة إسلامية، ذلك لأن المسلمين فى جميع أوطانهم لم يخوضوا من التجارب ما خاضته أوربا، خلال عشرة قرون تقريبًا قبل القرن السادس عشر، الذى نشأت فيه العلمانية نتيجة لهذه التجارب. فضلا عن أن الإسلام ليس مجرد عقيدة دينية، تدعو إلى الإيمان بالله، بل هو شريعة جلية تنهض دعوته بها على منهج متكامل للحياة الإنسانية السليمة، فى كل مجالاتها من العلم والعمل والأخلاق، نحو ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة».

«وعلى هذا الطريق المضىء بالحق، والظاهر بالبرهان، يقول الزميل والكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد بهجت «إن جوهر العلمانية هو: فصل الدين عن الدولة، وقد صارت هذه القضية فى أوربا، حين تدخل رجال الدين بها فى العلم والحياة معًا، وحاكموا العلماء مثل جاليليو وغيرهم، واعتبروا آراءهم فى العلم هرطقة وكفرًا.. ومن ثم عوقوا تقدم الحياة».

«ثم يقول الأستاذ أحمد بهجت، وفى المواجهة التصحيحية لهذا التيار العلمانى عندنا «العلمانيون فى الغرب معروفون، ولهم دورهم فى عجلة الحياة.. وأما العلمانيون فى الشرق، فعقول انبهرت بوهج الحضارة الأوربية وإنجازاتها

فتصوروا مخطئين أن الحضارة الأوربية هى الحضارة الإنسانية فى العصر، وأن على من يريد أن يتحضر أن يلحق بها، ويذوب فيها، ويعطى ظهره للتراث، ويولى وجهه شطر الغرب.. وهؤلاء هم الغلاة من دعاة التغريب»

وهكذا.. برغم الإيجاز، ندرك أن الدعاية «العلمانية» فى بلادنا، لا علاقة لها بمعنى «العالمية» بمفهومها الصحيح، سواء نطقوا هذا الاصطلاح. فى غيبة وعيهم باللغة العربية، بفتح العين أو بكسرها.. ذلك لأن هذه الدعاية تحصر جهدها اليوم فى أن يكون المسلمون مجرد «عالة» على الغرب، بفتح العين.. أو أن تكون هى «العلم» بكسر العين، لتحقيق هذا الهدف الشائن..

ولكننا سنحمد الله دائمًا، ونحن نتوجه فى صحوتنا إليه، ليجمعنا على الهدف، وليؤلف بين قلوبنا بالتقوى، وهو يطهرنا من المتشابه، ويعلمنا ما لم نكن نعلم، متوجهين بوجوهنا وبصائرنا.. إليه سبحانه، وهو القائل ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.. وهو ولى التوفيق» اهـ.

وكاتب آخر لم ينشروا له:

اتصل بى وزارنى ومعه مقاله وأبحاثه الأخرى العلمية ومصادره فى البحث عن العلمانية، وهو الأستاذ محمد محمد الليثى الباحث القانونى الذى قضى عمله الوظيفى فى مجلس «الأمة سابقًا» «الشعب» حاليًا، متصلا بعمله القانونى.

ولما رأيته فى بحثه من جدية ورجوع إلى المصادر المعتمدة فى «العلمانية» بالفرنسية والعربية، رأيت أن أضع بحثه هنا أمام القارئ، ليضيف إلى ما سبق إضافة جديدة ومهمة، وقد جعل بحثه بعنوان: **«للعلمانية فى الدستور معنى وهدف»**

وأعتقد أن هذا ليس بخاف على الأخ الدكتور زكى، وقد مضى أكثر حياته وحتى جاوز الستين من عمره طائرًا فى جو الثقافة الغربية، وشاربًا من ينابعها وعاد أخيرًا إلى «عشه» العربى.

وهذا هو البحث..

العلمانية فى الدستور معنى وهدف:

اللفظ الفرنسى الذى ترجم إلى (العلمانية) ليس من بين معانيه (العالم) ولذلك قد كنت أفهم أن يرجع الدكتور زكى نجيب محمود إلى مفهوم العلمانية، سواء كانت بفتح العين أم بكسرها، فى دساتير الدول التى وصفت نفسها بالدول العلمانية، قبل أن يعتمد فقط على ما أعتبره مدسوسًا بسوء نية أو بحسن نية على مجمع اللغة العربية، ذلك أن العلمانية كمبدأ، تضمنتها دساتير بعض الدول وخاصة منها الدول الغربية، وبعض الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية التى تطلق على نفسها «دول المجموعة الفرنسية»، ففى دستور جمهورية فرنسا تحت باب «تحديد السيادة فى الدولة» ما يلى:

«نصت المادة ٢ على أن فرنسا جمهورية لا تتجزأ، علمانية ديموقراطية.. إلخ.

ولقد حرصت على الاطلاع على نص هذه المادة فى الدستور الفرنسى لأعرف عن أى لفظ ترجمت كلمة علمانية فوجدت النص الآتى الذى يفلسف معنى الكلمة سياسيًا وتشريعيًا، *La France est une republique indursable* فكلمة *laique* الفرنسية ترجمها الدستوريون (علمانية)، والذى وضع هذه الترجمة الإدارة العامة للتشريع والفتوى فى مجلس الأمة (الشعب حاليًا)، كما هو ثابت فى الموسوعة العربية للدساتير العالمية التى أصدرها المجلس المذكور فى ١٩٦٦، والتى تعتبر من وجهة النظر الفقهية المرجع الدستورى لتفسير هذه الكلمة إذا ما فكر أحد الأحزاب (وهو وارد) فى طلب تعديل مواد السيادة فى الدستور، بحيث تحل كلمة (العلمانية) محل (الإسلامية)، وما يترتب عليها من إلغاء النص على اعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع فى غفلة من المعنى حين يشيع بين الناس، المعنى الذى يروج له الذين تربوا على الثقافة الغربية وأشربوها، فأصبحت ألصق بهم من ثقافتهم الإسلامية التى يتنكرون لها، بين الحين والحين ويحاربونها تحت أكثر من عنوان، فى مقالاتهم أو يومياتهم.

ومتى تم لهم ما أرادوا فلن يلتفت أحد إلى المعنى المفتعل الذى أورده القاموس الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية، ويتجه المشرعون إلى المعنى

الحقيقى للكلمة كما وردت فى دساتير الغرب.

وفى واقع الأمر أن كلمة (العلمانية) بالحروف العربية دخيلة على اللغة سواء أكانت بفتح العين أم بكسرها، وفى اللغة العربية ما يغنى عنها فى الحالين، فعندنا العالمية نسبة إلى العالم والعلمية نسبة إلى العلم، فما حاجتنا إلى إضافة (علمانية) مع الادعاء بنسبتها إلى العالم أو العلم، وقواعد النسبة إلى الشىء معروفة فى اللغة العربية.

ولقد شجع هذا الافتراء على اللغة أحدهم أن يقترح أن تكون بفتح العين واللام لكى تنصب النسبة إلى العلم بمعنى الراية، فيدخل فى مدلولها الأعلام الدولية التى يرفعها المتسابقون فى محافل الرياضة وهو مُحق فى اقتراحه مادامت الكلمة تخضع لكل هوى وتشكل حروفها وفقًا للأغراض، لا وفقًا لموضعها من الإعراب.

ولقد دفعنى البحث عن الأصل الذى وفدت عنه إلينا كلمة (العلمانية) إلى مراجعة بعض المصادر المتاحة فوجدت الآتى:

١ - جاء بكتاب العلم والإيمان الذى ألفه بالتركية المشير أحمد عزت باشا وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام وآخر، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ ما يلى فى صفحة ١٩٥ تحت عنوان «هوامش كتاب الدين والعلم»:

«لفظ اللادينى وضعه فى اللغة التركية المرحوم «ضياكوك آلب»، مقابلا لكلمة (Laique) الفرنسية، وكلمة لاييك مشتقة من اللغة اللاتينية، ومعناها غير متخصص فى علم ومسلك، وخصص الفرنسيون إطلاقها بالذى لم يدخل فى جماعة الرهبان، فهى إذن ذات علاقة بالدين، حتى لو كانت ترجمتها (لارهبانية)

٢ - راجعت معنى الكلمة ومرادفاتها فيما تحت يدى من قواميس فوجدت:

(أ) قاموس أكسفورد إنجليزى إنجليزى ذكر ما يلى ملخصًا

laic, laical (non clerical, layman, secular

(ب) قاموس القرن العشرين إنجليزى إنجليزى بمعنى ينتسب إلى العامة

laical = pretaining to the people من الناس

not clerical = ليس من الكهنة

secular: as apposed to clerical one who believes that education should be opposed of religion; one who discarding religious believes (بالاختصار من يعارض الدين دراسة وينبذه عقيدة).

(جـ) دائرة المعارف الفرنسية أحالت معنى (*laique*) إلى مادة (clerge) بصفحة ٦٥٢/٦٥١ من المجلد الحادى عشر ولا يخرج البحث فيها عن أن المعنى ليس من رجال الدين أى (من عامة الناس)، فالكلمة لها علاقة بالوضع الدينى الكاثوليكى.

(د) فى القاموس العصرى إنجليزى عربى وعربى إنجليزى جاءت الكلمات:

علمانى - غير كهنوتى، مختص بالعوام Laical, Laity, Lay

كهنوتى Clerical غير كهنوتى Non clerical

علمانى - غير كهنوتى - ليس من أرباب الفن أو المهنة Layman

عالمى - دنيوى - علمانى - عامى (نسبة إلى عام) جيلى Secular (نسبة إلى جبل) قرنى (نسبة إلى قرن) (يلاحظ فتح العين).

(هـ) معجم اللغات (إنجليزى - فرنسى - عربى)

سواد الناس - الرغبة - جمهور المؤمنين ما عدا رجال الدين.

(و) لاروس الجديد Nouveau larousse

laique (adj) l'ecole publique est LAIQUE elle est (عكس دينى) indpandante de tous les religious (reliegieux)

laic de chertiens qui ne sont pas des membres du clerge من غير رجال الإكليروس

laicite la laicite est l'absance d'engagement religieux غياب استعمال الدين

(ز) المنجد فرنسى عربى عن دار الشرق ببيروت
علمانى – (دولة – تعليم مدرسة) لادينى laic ou laique وليس من بين معانى Laique (عالمى) كما يلاحظ كسر العين أيضًا.

٣ – فسرت جمهورية السنغال – ودستورها مستمد من الدستور الفرنسى – كلمة (علمانية) بأنها غير دينية، وذلك فى المادة (١) من دستورها.

٤ – جاء فى ديباجة دستور جمهورية الكمرون تفسيرًا للعلمانية ما يلى: «مبدأ العلمانية الذى يضع الشعب الكمرونى جمهوريته تحت لوائه، يعنى الفصل بين الكنائس والدولة، ويترتب على ذلك أن الجمهورية ليست كنسية ولا دينية.

٥ – جاء بالمادة ٢ من دستور جمهورية الجابون: (أنها تعلن انفصال الدين عن الدولة)، ومن المعروف أن الجابون إحدى دول الجماعة الفرنسية.

٦ – وصفت المادة ٢ من دستور الجمهورية التركية بأنها دولة قومية ديمقراطية علمانية، ثم جاء بالمادة ١٩ من دستورها (... كما لا يجوز الاستناد إلى التعاليم الدينية، لتأييد نظام الدولة الاجتماعى، أو الاقتصادى، أو السياسى، أو القانونى، وكل من يخالف ذلك أو يدفع الغير إلى مخالفته يعاقب وفقًا للقانون). وهكذا نرى التفسير الصريح لكلمة العلمانية فى الدستور التركى كمبدأ فى ماهية الدولة.

كما أنه من استقراء المرادفات ومعانيها، نجد (عالمى) فى معنى (secular) فقط.

أما بعد فمهما تعددت الألفاظ والمرادفات فى اللغات الأجنبية لكلمة العلمانية، سواء بفتح العين أو بكسرها، ومهما تعددت المعانى العربية لهذه الألفاظ، فما لا شك فيه أن العلاقة وثيقة بين كلمة (العلمانية) وبين الرغبة فى الانسلاخ عن المبادئ والتعاليم الدينية، سواء أكان هذا الانسلاخ متعلقًا بالأفراد أم الجماعات أو بالدول.

وكل مايقال غير ذلك استنادًا إلى تخريج ضعيف لإحدى معانى الكلمة أو مرادفاتها، قول غير ذى موضوع، ولقد كان حريًا بمجمع اللغة العربية عندما

أضاف كلمة (علمانية) إلى القاموس الوسيط أن يدرج كل المعانى التى خرجتها القواميس الأجنبية أو العربية، منعًا لالتباس الأمر على الناس، حينما يأخذ أحدهم بمعنى دون آخر، على الأخص تلك المعانى التى أوضحتها الدساتير التى وصفت نفسها بالعلمانية، والتى يعتد دائمًا بتفسيراتها لدى فقهاء القانون الدستورى، ولا يعتد وقتئذ بأى معنى منسوب إلى العلم أو القلم.

ومن ثم نجد أن كلمة (علمانى) إذا أطلقت انصرفت بالغلبة إلى معنى (لا دينى) فى القوانين الوضعية.

ويبدو أن الهدف من إثارة هذه المسألة من وقت لآخر، هو صرف نظر الأجيال الحالية والقادمة عن الدين، وإبعادها بكل وسيلة عن مبادئه وتعاليمه، ثم إغلاق المعاهد الدينية، كما نادى بذلك الدكتور زكى نجيب محمود فى مقاله (أدرك السفينة يا ربانها)، الذى نشره فى جريدة الأهرام يوم (٥ مارس ١٩٨٤)، وهو لم يطلب بذلك فى مقاله بصيغة مباشرة، ولكن كنتيجة منطقية لدعوته إلى إلغاء الازدواجية الموجودة فى التعليم الأساسى، لأنها (أى الازدواجية) من وجهة نظره لا تؤدى إلى أن يكون جميع الدارسين إلى سن معينة، تحت مظلة ثقافية واحدة، وحتى لا تغرق السفينة فقد التجأ إلى الربان، لكن ينقذها من هذه الازدواجية، والربان فى هذا المجال هو المخطط للتعليم، فاقترح عليه أحد أمرين، هما بالاختصار، مع الحفاظ على المعنى:

١ - إذا كانت الدراسة فى الخط التعليمى العام هى الأصلح، فلتكن هى الدراسة للجميع.

٢ - إذا كانت الدراسة على برامج المعاهد الدينية، هى الأصلح لوحدة المظلة الثقافية - فى رأى رجال التربية - فلتكن هذه الدراسة للجميع.

ويرى تبعًا لذلك أنه من الأصوب أن نقدم للناشئة جميعًا ما يوحى لهم بقوة، أنهم أبناء أمة واحدة، لا بد أن تكون لها رؤية ثقافية واحدة.

وهذا كلام معسول الظاهر، ولكنه مر الباطن، فهو يخفى وراءه غرضًا جعله مقدمة لموضوع العلمانية، إلا إذا كنت أخطأت الفهم عنه.

فالدكتور الكاتب يعلم علم اليقين، أن الدراسة على برامج المعاهد الدينية لا تصلح أن تكون مظلة موحدة لجميع أبناء هذه الأمة، من مسلمين وأقباط، فلا خيار أمام المخطط للتعليم إلا الأخذ بالخط التعليمى العام، دون الخط التعليمى على مناهج المعاهد الدينية.

ومن ثم تغلق المعاهد الدينية الأزهرية الابتدائية والإعدادية، ومن ثم لا تجد المعاهد الثانوية من يكون صالحًا للالتحاق بها، فتغلق هى الأخرى، وهكذا.

ومن ثم يكون قد تحقق الحلم القديم للاستعمار الغربى الصليبى عندما دعا إلى إلغاء الازدواجية فى التعليم بعد ما تبين له أنه فى ظلال المعاهد الدينية توثقت العلاقة بين مصر وجميع البلاد الإسلامية، وفى ظلال الأزهر الشريف قويت عوامل الربط بين مصر وكل المجتمعات الإسلامية.

فإضعاف الصلة التى تربط بين التعليم الدينى والمدنى سياسة ابتدعها «جورج لويد» و «مستر دنلوب» وكان من أثرها إلغاء التعليم الدينى بالمدارس الإلزامية.

وعندما قام بعض الخيرين بافتتاح كتاتيب لتحفيظ القرآن سلطوا عليها وزارة الصحة لإغلاقها بحجة عدم توفر الاشتراطات الصحية فيها، كل ذلك حتى ينصرف الناس عن الدين، ولن يتحقق مثل هذا الهدف إلا فى ظل (العلمانية)، سواء فتحنا العين أو كسرناها، وتغاضينا عن فلسفة مدلولها السياسى الذى يحاول اخفاءه، من أخذوا الثقافة عن الغرب.

ألا فاتقوا الله فى دينكم، وفى أولادكم، وفى تلاميذكم وأمتكم، وفى نفسكم، ولا تظنوا هذا إرهابًا فكريًّا، بل نصيحة خالصة، ولكن من الألفاظ ما هو فتنة، تؤدى إلى أن تدخل الأمة جحر الضب وراء الغرب، بعد أن نتبعه شبرًا بشبر، وذراعا بذراع[1].

---

(١) يشير إلى حديث لرسول الله ﷺ يخبر ويحذر حين قال «لتتبعن سن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه، والمسألة ليست قاصرة على من كان قبلنا بل عامة تشمل حتى المعاصرين لنا، الذين نقلدهم ونمشى وراءهم، كما هو حاصل الآن.. ولابد أن نلاحظ أن الرسول بهذا يحذرنا وينذرنا إذا سرنا وراء غيرنا دون تفكير وتعقل، حتى ندخل وراءه جحر الضب الضيق المتعرج فنلقى هلاكنا..

ألا قتل الإنسان ما أكفره، فكما يكذب على غيره فى الكلام يكذب على نفسه وعلى غيره فى الفهم» ا. هـ.

وأخيرًا فهل تتفق العلمانية مع الإسلام؟

سؤال ربما لمحت الإجابة عنه مما مضى، لكننا نريد أن نبسط القول فيه قليلا، تذكرة لمن يخشى، وقضاء على الخداع الذى يقع فيه بعض المخلصين لدينهم وثقافتهم، وهم لا يدرون..

وقد تحدثنا عن العلمانية قريبًا وتعريفها، وذكرنا سريعًا منشأها ومنبتها، ونريد هنا أن نزيد القول إيضاحًا عن البيئة أو الجو الذى نشأ فيه القول بالعلمانية بمعنييها: المعقول، والمتطرف.. وعما إذا كانت تتفق مع الإسلام أو تناقضه، وتنقضه؟

لقد نشأ هذا التيار الذى سمى بالعلمانية فى أفكار الذين ضاقوا ذرعًا بسلطة الكنيسة ورجالها، وتدخلها فى نظام حياة الناس، تدخلا غير رشيد، وغير متفق مع حقيقة المسيحية وروحها..

لقد تدخلت الكنيسة بسلطانها الرهيب فى الأمور الكبيرة والصغيرة فى حياة المسيحيين، وطاردت العلم والعلماء، وحظرت عليهم أن يفكروا فى غير ما يفكر فيه رجال الكنيسة. وحاربت كل تغيير نحو التقدم فى مظاهر الحياة، حتى حاربت إنشاء الحمامات، وتبليط الشوارع فى فرنسا كما فى الأندلس باسم الدين...

وأدى تسلطها هذا، وتصرفها كما يتصرف الإقطاعيون، بل وتعاونها معهم إلى أن تثور الشعوب عليها، وعلى الإقطاعيين، وسلطاتهم الرهيبة.

فلما نجحت الثورة الفرنسية، وتبعتها ثورات أخرى، كان القضاء على نفوذ الكنيسة فى مقدمة أهداف الثائرين.. وكان ذلك يعنى على الأقل: إبعاد كلمتها نهائيًا عن التدخل فى شئون الحياة للشعب، وتركه هو يقرر مصيره، ومصالحه حسبما يراه هو، لا مايراه رجال الكنيسة..

فرجال الكنيسة لهم سلطاتهم الكهنوتية داخلها، والدين لا شأن له بالحكم،

ولا بالنظم، ولكن ذلك شأن الناس وحكامهم.

فالكنيسة حرة فى الحديث عن الدين داخل الكنيسة، ولمن يذهب إليها، لا تتحدث فى أى شأن من شئون الحياة. يتصل أمره بجهاز الحكم.. وكل إنسان بعد ذلك حر فى دينه، يذهب إلى الكنيسة أو لا يذهب، يعتقد بوجود إله أو لا يعتقد، فهذه كلها أمور بين الإنسان وخالقه[١] فالكنيسة مفتوحة لمن يريد الذهاب إليها، ليستمع إلى موعظة دينية روحية..

ووضعت النظم والقوانين على هذا الأساس، وحسب رأى الحاكمين الذين اكتفوا وقتها بذلك.. وكان هذا هو: فصل الدين عن الدولة، أى إبعاد الدين عن التدخل فى شئون الدولة، وما تسنه من قوانين، وتضعه من نظم للحياة..

وكان هذا هو ما أطلقوا عليه عندنا اسم «العلمانية»، وقد سبق بيان معنى هذا الاسم، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم العلمانية المعتدلة، لأنه جاء ماركس بشيوعيته، وأنكر الإله والأديان جملة وتفصيلاً، فلا إله، ولا رسل، ولا كتب، ولا دين جاء من الله، لأنه لا يوجد إله أصلاً يرسل رسلاً، أو ينزل كتبًا، أو يشرع دينًا!!

فكان هذا المذهب الماركسى الشيوعى، يمثل «العلمانية المتطرفة» لأن الأولى ظهر عليها أنها اعترفت بالله وبالدين، ولكنها حصرته فى نطاق ضيق، وأبعدته عن التدخل فى شئون الحياة، أما المتطرفة فأنكرت الإله والدين من الأساس، ولعل ماركس وجد الجو مهيئًا له بعد مدة من الثورة الفرنسية ليصل بالعلمانية إلى حقيقتها دون لف ودوران[٢].

---

(١) وكانت هذه مرحلة لدى الثائرين على الكنيسة، اضطروا إليها ربما لمراعاة شعور الناس الذين طال ارتباطهم بالكنيسة فى كل أمر، وخوفًا من رد الفعل من هذا الجمهور لكن الثائرين لم يكونوا يضمرون أى خير للكنيسة.. ويريدون إبادتها بالمرة..

(٢) سبق أن بيننا أن العلمانية التى لاتعترف إلا بالعلم المادى، تذهب إلى عدم اعتبار الأديان والفلسفات الروحية، وهو موقف طبيعى لها ما دامت لا تعترف إلا بالعلم التجريبى والعقلى المحض، أما موقف مهادنة الدين والروحيات وتركها لحالها فقد أطلقوا على معتنقيه فى فرنسا اسم «اللائكى» وهو اسم لم نتداوله عندنا فى الشرق، فى حين أنه معروف ومستعمل فى البلاد الغربية الإسلامية المتأثرة بالثقافة الفرنسية..

لكن الإسلام: بعقيدته ونظمه وقيمه، يرفض العلمانية، معتدلة ومتطرفة، لأن الإسلام ليس مجرد عقيدة بين الإنسان وربه، يمكن حصرها فى المسجد، ولكنه دين حياة، بمعنى أنه جاء بقواعده وتفصيلاته لوضع نظام الحياة، يسير عليه الناس فى شئون دنياهم.. وأمر المسلمين أن ينظموا حياتهم على أساسه، وسلب الإيمان من أى إنسان لا يقر بهذا، ولا يخضع له، وأدانه باسم المعصية، إذا أهمل أو قصر فى شىء من تنظيمات دينه، وأدانه بالردة عنه والكفر به، وبالذى شرعه، إذا رفضه عمدًا، معتقدًا أنه غير صالح، وفضل عليه نتاج العقل البشرى بدعوى أن العقل يدرك المصالح ويقنن لها..

لأن هذا معناه: أن الله عاجز عن العلم بمصالح البشر، أو متعنت معهم، عابث بمصالحهم فى دنياهم، ومن قال ذلك أو أقر عملا يؤدى إليه، فقد ناقض ربه، ووضع نفسه أو مشرعيه فوق الله وحكمته وعلمه ورحمته.

ولذلك أنزل الله القرآن، وفيه تبيان لما يعمله المسلم، ويعتقده، جملة وتفصيلاً، ووكل إلى رسوله بيانه وتوضيحه، وشرح ما يحتاج منه[١] منه لشرح، وبذلك وفر على الإنسان الكثير من الجهد الذهنى، فى اختيار الوسيلة الأفضل فى حياته، وجنبه الزلل والشطط سواء فيما يعتقده، أو فى النظام الذى يسير عليه، وأطلق الإسلام حرية التفكير للمسلم لكن فى الدائرة الواسعة التى رسمها له ليحققوا مصالحهم بالطريقة السليمة باجتهادهم وتفكيرهم. على أن يسيروا فى هذا على هدى ما أرشدهم إليه الحكيم الخبير.. لا يخرجون عنه ولا يتمردون عليه.

وقد أنزل الله بيانًا واضحًا ومشددًا فى هذا فقال يخاطب رسوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم (حصل من خلاف) ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾[٢].

وإذا كان قد أباح للمسلمين أن يفكروا ويجتهدوا، ومن شأن ذلك أن يحصل خلاف بينهم فى التفكير، فقد جعل الفصل فى خلافهم إلى كتاب الله وسنة رسوله..

---

(١) ذلك كما تقول الآية الكريمة: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل ٢٤].
(٢) النساء ٦٥.

﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (أولى الحكم والاختصاص) فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[١] أى عاقبته وبالا فى دنياكم وآخرتكم. أى جعل لهم قاعدة ينطلقون منها، ويرجعون إليها إذا تاهوا واختلفوا.. وهذا أمر ضرورى.. ويقول: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾[٢]، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[٣].

وقد ذكر الله أصناف الذين لا ينفذون أمر الله ونظامه، ولا يحكمون الله ورسوله فى شئونهم، وصنفهم حسب حالهم وأعطى كل حالة حكمها. من كل الذين يدينون بنظام ودين سماوى: فقال: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ إذا كان عدم حكمهم ناتجًا عن ردهم لحكم الله واعتقادهم عدم صحته.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ وفى آية أخرى ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ إذا كان عدم حكمهم بما أنزل الله ناتجًا عن تقصير وإهمال مع إيمانهم وإقرارهم به وبصحته..

وهذا يشمل اليهودى الموسوى والمسيحى والمسلم.. وهم أصحاب الأديان السماوية المعروفة.. والنتيجة لهذا كله أن المسلم لا بد أن يلتزم بأحكام الله ورسوله فى حياته، وأن ينظمها حسبما جاء عن هذا الطريق تفصيلاً أو إجمالاً فى شكل قواعد عامة شرعية..

ولا يقبل منه الخروج على هذا النظام كليًا قولاً أو عملاً..

ولا يقبل من المسلمين جملة أن يفصلوا دينهم عن حياتهم، أو يسيروا على هدى ونظام غير هديه ونظامه..

---

(١) النساء ٥٩. (٢) النساء ٨٣. (٣) الحشر ٧٢.

وقد تكفل القرآن الكريم والحديث وما قام حولها من شروح وتفسيرات، وما استنبطه المجتهدون منها، ومن القواعد الشرعية العامة، ببيان النظم الهادية فى كل مجالات الحياة.

وباب الاجتهاد مفتوح لتحقيق المصلحة على ضوء النصوص والقواعد العامة لا حجر عليه، بل عليه ثواب حتى وإن أخطأ عن حسن نية، فلا عذر لأحد فى الخروج على نظام دينه، أو استعارة أنظمة تخالفه، وتغض منه، وتربى المسلمين على التمرد عليه وتوجههم وجهة تخالف وجهته..

وبذلك تكون الدعوة للعلمانية معتدلة أو متطرفة - بالقول أو العمل، دعوة عدائية لنقض الإسلام وإبعاده عن طبيعته وتفتيت روحه فى نفوس المسلمين، وتوجيههم وجهة غير الوجهة التى أرادها الله منهم ولهم.. ودعوة كذلك إلى أن يكونوا تابعين لغيرهم، دون أن تكون لهم شخصية تميزهم، دعوة إلى أن يتخلوا عن تاريخهم وأمجادهم وأصالتهم، ويعيشوا بين الأمم بلا أصالة أو جذور..

* * *

ومن هنا تظهر لنا مدى الجناية التى يقترفها الغير ضدنا ومدى الجناية الكبرى التى نقترفها أو يقترفها البعض منا ضد أمته باستجلاب العلمانية وغزوها لنا..

ويتعين فى الوقت نفسه، أن تهب الأمة لتقف ضد هذه الجنايات المتتالية عليها من الداخل والخارج، وتحاسب كل من يقترفها.

فالعلمانية هناك كانت رد فعل على ما حدث من رجال الكنيسة، ومحاربتهم لكل فكر وعمل متفتح لا يرونه هم..

وقتلوا عشرات الألوف من المفكرين خارج دائرة تفكيرهم، وممن يدعون لعمل لا يرونه.. فثار المفكرون الأحرار ضدهم ومعهم الشعوب، وكان من الطبيعى بعد أن انتصروا أن يحدث رد فعل حتمى، فكان عزلهم الدين ورجاله عن التدخل فى شئون حياة الشعوب وكانت العلمانية..

والشعوب الإسلامية بحكامها وعلماء الدين فيها، لم يمروا بمثل هذه الحالة التى أوجدها رجال الكنيسة هناك، الذين كان رأيهم مطاعًا، وكلمتهم نافذة على الملوك والرؤساء، فعبثوا بحياة الناس وحياة المفكرين وعقولهم كما شاءوا دون حسيب أو رقيب..

وهذا لم تعرف الشعوب الإسلامية مثله على مر تاريخها، كما أنه ليس من طبيعة الإسلام، ولم يدعه أحد من علمائه وإذا كانت قد حدثت أحداث فردية قليلة جدًا، تجاه مفكر من المفكرين من أحد الحكام، فإن هذا حدث لا لحساب الدين، ولكن لحساب الحاكم وهواه، وشكه فى ولاء المفكر له ولحكمه، ومصادرته لرأيه وأوامره.. ولكن الحاكم كان يلبس المتهم عنده تهمة خروجه على الدين ليبرر عمله..

فلم يكن الإسلام ولا رجاله ولا حكامه ولا تاريخه وتاريخ المسلمين فيه شىء يشبه ما حصل من رجال الكنيسة فى أوربا.. فما الداعى إذن - لكى ننقل الشجرة التى نبتت هناك فى جو خاص بها، لتغرسها هنا، ونجعل منها شجرة الميلاد؟ اللهم إلا مجرد التقليد وإملاء روح العبيد؟

ديننا متفتح:

وليس معنى التزامنا بالدين أن ننعزل فى الحياة عن غيرنا من الأمم، أو ننقطع عن ركب التقدم فى مجالات الحياة فديننا متفتح لكل عمل، وكل علم من شأنه أن يجلب الخير والنهوض لأمته، وثقافتنا بمعالمها الواضحة تدفعنا إلى كل عمل جاد، والاستفادة من علم وتجارب الآخرين بصرف النظر عن دينهم وجنسياتهم، «والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» كما يقول رسول الله..

والعلوم والصناعات لا وطن لها، ولا تحمل فكرًا يخشى منه، وهو تراث للعالم كله، كل أمة شاركت فيه، وكل أمة تغترف منه، والإسلام بنصوصه وبروحه يدفع المسلم دفعًا إلى العلم والمهارة فى كل فن وعلم، وحرفة، وعلى أساس ذلك فهم المسلمون الأول دينهم، وانطلقوا يبنون حضارتهم كأرقى ما تكون الحضارة

وأعلاها ازدهارًا. والتفكير الحر هو وسيلتنا إلى هذا[١].

وثقافتنا التى يعتبر ديننا جزءًا أصيلًا فى تكوينها، هى كذلك، تتفتح لكل نافع ومفيد، وتدفع أمتها، والحاملين لها، المتسلحين بها، إلى أن يغترفوا من العلم والحرف والمهارة أينما وجدوا ذلك...

والتحفظ الوحيد الذى يرفعه ديننا، وترفعه ثقافتنا، هو ألا نأخذ العلم والمهارة عن الغير بروح أو بطريقة تخدش الدين أو تخلخل الثقافة فتتغذى ولكن مع الاحتياط من المواد الضارة بصحتنا...

فننهض ونقوى فى مجالات الحياة كلها، مع الاحتفاظ بديننا وثقافتنا وتقاليدنا الأصيلة كقوة دافعة لنا إلى السمو فى الحياة[٢]...

وليس ذلك صعبًا لأمة تريد أن تبنى نفسها، أو تحافظ على بنيانها، ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك...

إذ لا منافاة مطلقًا بين التقدم العلمى والتكنولوجى وكل تقدم فى مجالات الحياة وبين الاحتفاظ بالدين والثقافة..

بل إن الإسلام والحفاظ عليه، يعتبر باعثًا قويًّا على هذا التقدم، إلى حد أنه يعتبر التقصير عن الأخذ به والوصول إليه، تقصيرا دينيًّا يحاسب عليه المسلم أمام ربه..

---

(١) والمتتبع الدارس لتاريخ الفكر فى الإسلام يجد مدى حرية الفكر التى تمتع بها العلماء والمفكرون المسلمون، حتى وضعوا أسس التفكير السليم عن طريق التجربة، بل عن طريق الشك، ليصلوا إلى الحقيقة، مما قرره الإمام الغزالى وغيره، وسبق به (ديكارت)، بل استفاد به (ديكارت) فى منهجه المعروف، كما استفاد «روجر بيكون وفرنسيس بيكون» فى تفكيرهما ومنهجها فى التفكير من مناهج العلماء المسلمين فى البحث كما قرر ذلك الباحثون المنصفون، (راجع فى ذلك كتاب القرآن والمنهج العلمى المعاصر) للمستشار عبد الحليم الجندى، والغزالى ديكارت للدكتور زقزوق. وكان علماؤنا الأفذاذ فى علوم الحضارة، من فلك وطب وكيمياء إلخ يجمعون مع علومهم هذه علوم الدين واللغة ويتبحرون فيها حتى كانوا من أئمتها أيضًا وذلك لأنه لا عداوة بين هذه العلوم كلها فى الإسلام ولا حجر على حرية العالم..

(٢) يقول جوستاف لوبون: «إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

وتنمية الإنسان بالطريقة السائدة الآن فى كل نواحى الحياة أمر يصر عليه الإسلام: تنمية روحية ومادية معًا.

والإسلام يحيط هذه التنمية برعايته، ويوجهها إلى الطريق الأفضل دائمًا، الطريق الذى يجمع بين تنمية الروح والضمير والوجدان، وبين تنمية النواحى المادية فى الحياة، بحيث يتوفر للمسلم البناء المعنوى والبناء المادى، ويحرس كل منهما الآخر...

فالتنمية المادية، لا تصل إلى غايتها، وتستمر فى طريقها، وتسلم من النكسات إلا إذا صاحبتها تنمية روحية، مستمدة من الثقافة الأصيلة للأمة. وهذا هو منهج الإسلام لبناء الحياة على أساس الإيمان.

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يُحْىِ دينا

إن كل التنظيمات والتعليمات الإسلامية، إنما هى لبناء الحياة المادية القوية، والذى يتأمل فى هذا بعمق يجد أن الإسلام فى تنظيماته للحياة دين يعنى تمام العناية بماديات الحياة، ليقيم الإنسان مملكته على الأرض، ولكى يقيم هذه الحياة المادية ويشيدها ويعلى بنيانها، ويعطيها المتانة والقوة، حتم على الإنسان أن يقيمها على أساس متين هو الإيمان.. هو العقيدة.. وأى عمل بدون إيمان وبدون عقيدة تدفع إليه، وتحرسه، لا قيمة له.. ولن يتم على الوجه المراد...

ولقد قررت هذا المعنى أو هذه القضية فى حديث إذاعى لى على البرنامج العام فى الأسبوعين الأخيرين من يناير ١٩٨٥، فى برنامج «شاهد على العصر» ليفهم الناس الإسلام على حقيقته، وليعرفوا أن الإيمان والعقيدة والعبادة ليس معناها أن يقعد الإنسان ويتعبد، ويترهبن، بل إن الإيمان والعقيدة والعبادة من أجل الحياة أيضًا وبنيانها... من أجل تأسيس قاعدة انطلاق قوية للحياة، كقاعدة انطلاق المدفع القوى البعيد المدى، لابد أن تكون قوية، وكقاعدة إطلاق الصاروخ للفضاء لابد أن تكون مناسبة لقوة اندفاع الصاروخ..

وهكذا فى الإسلام، وبناء صرح الحياة على مبادئه وتعاليمه، لابد أن يقام هذا الصرح على قاعدة قوية من الإيمان بالله، بحيث ينطلق الإنسان من هذه القاعدة

بالقوة المناسبة لها، فكلما كانت القاعدة قوية فى نفس المسلم، كان انطلاقه فى الحياة أقوى، وتصويبه لأهدافه أسلم، وتحصيله لثمرة عمله أوفر، وهنا تكون فائدة الإيمان وضرورته...

فالدين بكل ما جاء به من عقيدة وعبادة ونظام إنما هو «خلطة» منها كلها، لإقامة صرح الحياة المادية القوية للمسلم، حتى لا يسبقه إنسان آخر، ويقيم صرحًا أقوى منه، وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم المسلم دينه، ويتجاوب معه ليقيم مملكته على هذه الأرض، كمقدمة لأن يأخذ جائزته ومملكته عند الله فى الآخرة، لنجاحه فى إقامة مملكته على الأرض...

وقد وصل إلى هذا المعنى بعض الغربيين وتحدثوا به، فلسنا فى حاجة إلى تنحية الدين لكى ننجح فى الحياة، بل فى حاجة إلى الدين لننجح...

فقال «جورج روبير»: «إن الإسلام ليس دينًا فحسب (بمعنى عقيدة وعبادة)، إنه آخر الأديان التى ظهرت فى التاريخ، وإنه أيضًا وبصفة خاصة، مجتمع روحى واجتماعى ونظام سياسى، وأسلوب للعيش، ولقد أعطى الإسلام للدنيا حقها، وللآخرة حقها، فلا تزهق الروح لحساب البدن، ولا يزهق البدن لحساب الروح، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية فى شخصية المسلم»..

ويقول إميل درمنجم: «الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح، والدنيا والآخرة، جسم وروح، ودولة ودين وحياة، وغيب، والإسلام عقيدة تقدمية، لا بوصفه مؤيدًا لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دومًا للأمام»...

ويقول مريسون: «إن الحق الذى لا يمارى فيه أحد أن الإسلام أكثر من معتقد ودين، إنما هو نظام اجتماعى تام الجهاز، حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها»..

ويقول «إلزى لستنشتاتر»: «الإسلام ليس دينًا فحسب، بل هو أسلوب فى الحياة، وجد دون غيره طريقه إلى نفوس الأميين والفقراء، وإلى نفوس المثقفين،

والقادة والساسة، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة، رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا، ظلوا مخلصين لدينهم»، يعنى لم يجدوا صدامًا بين العلم والدين[١]... هذا هو الإسلام فى حقيقته، وفى تاريخه، ومن هذا ندرك مدى جناية الذين يريدون نقل «العلمانية» من هناك لزرعها هنا، جنايتهم عل دينهم وأمتهم وتاريخهم، والله من ورائهم محيط...

(١) ارجع إلى ملحق كتاب «سقوط العلمانية» للأستاذ أنور الجندى تجد أكثر من هذا...

obeikandl.com

والآن.. ماذا أريد؟

أعتقد أنه قد تبين مما تقدم كله ماذا أريده.. وماذا أدعو إليه..

لكن لا بأس من أن أحدده هنا فى كلمات قليلة..

إن الذى أريده هو أن نعمل على انحسار وصد موجة التقليد للغرب والشرق، فى أمور هى من أخص خصائص مقوماتنا وثقافتنا الأصيلة.

وأن نقاوم هذا الزحف على ثقافتنا وشخصيتنا الأصيلة كأمة إسلامية، لها خصائصها ومقوماتها الذاتية.

ومن واجب كل فرد فيها أن يغار ويعمل على استقلال شخصيتها، ويحافظ على ثقافتها من الاعتداء والامتهان والتسلل، كما يغار ويحافظ على أرضه وبيته، واستقلاله، وشخصية وطنه الصغير والكبير من أى اعتداء أو امتهان...

وألا يخشى فى سبيل ذلك قوة فى الأرض مهما تبلغ، لأنه محروس ومعان بقوة الله التى لا تقهر، ولأن الله ضمن الجنة والنعيم لمن يقتل فى سبيل ذلك.

وألا يهاب «خيال المآتة» الذى نصبه له أعداؤه ليخوفوه به. كما تخاف العصافير...

فإن المسلمين من كثرة مادق أعداؤهم على رءوسهم، من أنهم متعصبون لدينهم، ونصبوا لهم بذلك «خيال المآتة»، صاروا يخافون منه، ويتخلون عن إبراز معالم دينهم، حينما يستدعى الأمر ذلك عندهم، ويتخلون عن القيام بواجباته وتعاليمه، بل من استعمال كلمة «الدين» فى كلامهم، وبلغ الأمر ببعضهم إلى تصور أن الذى يتمسك بدينه وتعاليمه أو يتحدث عنه، يعتبر رجعيًّا متخلفًا، ثقيل الدم، وغير عصرى إلخ... وأن الذى يتهجم عليه، ويتحلل منه، يعتبر عصريا متحضرًا، خفيف الظل، مقبولا، ومشهورًا !!.

حتى بلغ الأمر ببعضهم، من طلاب الشهرة والزعامة فى أوساطهم المحدودة أو الواسعة، أن يتعمد التهجم على دينه وتحدى تعاليمه، ليعرف، ويشتهر!!.

وفى بدء شبابنا وارتياد عالم التأليف.. قال لى صديق اختلفت معه، وكان قد بدأ عالم التأليف بكتاب هاجم فيه مبدأً مهمًّا من مبادئ دينه، تأثرًا بما فى الغرب.. قال لى: ما دمت ملتزمًا بحدود الدين فيما تكتب، أنت أو غيرك، فلن تروج لك كتب. كما راج كتابى.. ودعانى إلى أن أكتب معه كتابًا من هذا القبيل، نفاجئ به الرأى العام الدينى.. فرفضت طبعًا.. والتزمت بخطى.. ثم رأيته بعد سنوات جال فيها وصال، واشتهر اسمه، يعود مشكورًا من الله والناس إلى خطى، ويثرى القراء بتآليفه الطيبة.. فى هذا المجال.. وحقق بذلك الحكمة المعروفة: «البقاء دائمًا للأصلح» كما حقق واقعيًّا قول الله سبحانه: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء «غثاء» وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾[1] وهكذا يؤثر «خيال المآتة»، الذى أقامه أعداء الإسلام على المسلمين وإلى هذا الحد!!

وكثيرًا ما لاحظت فى المتحدثين والكاتبين من كبار المسلمين، أنهم ينأون بأنفسهم فى كلامهم عن استعمال كلمة «الدين» فى موضعها ويستعملون بدلا منها عبارات مثل «القيم الروحية أو المعنوية» أو ما شابه ذلك.

ولم أملك إلا أن أبدى هذه الملاحظة، إذا كنا فى جلسة من الجلسات التى تضم كبار العلماء فى مصر... وكانوا يعتذرون عن ذلك بأن تعبيرهم ينطبق على الدين... ولكنى كنت أعجب: لماذا لا يعبرون بالكلمة الصريحة؟

ومما يخافون؟ وما الذى جعلهم يعدلون عن الكلمة الصريحة إلى العبارة المشتركة؟!

وأقول: إن الشيوعيين وغيرهم وجدتهم يستعملون هذه العبارة. «القيم الروحية»، تعبيرًا عن مبادئهم، وهى ضد الدين! وكذلك يفعلون!!

---

(١) الرعد (١٧).

وأمامى الآن كتاب «أسس التربية فى الوطن العربى»[١]، وعلى كثرة ما فيه من البحوث عن أسس التربية فى هذا الوطن الإسلامى لم أجد حديثًا صريحًا عن الدين وأثره فى التربية، ووجدت الذين تحدثوا عن هذا الجانب كان عنوان أحاديثهم «القيم الخلقية والروحية وأثرها فى تكوين الشخصية العربية»، وحتى فيما كتب هؤلاء الذين عرف عنهم تعلقهم بدينهم والدفاع الشديد دائمًا عنه وعن قضاياه لم أجدهم يستعملون كلمة «الدين» صراحة. ولم يستعملوا عبارة الإيمان بالله ورسله إلا نادرًا، بل يستعملون غالبًا: «الإيمان بالقيم الروحية والخلقية»، وما يشبه ذلك من عموميات!!

وأعتقد أن العناوين كانت من اختيار الأساتذة، منظمى الحلقة، لاعتبارات عندهم!! وأن الذين كتبوا تحت هذا العنوان وكتابة جيدة ممتازة. قد راعوا أيضًا الاعتبارات التى راعاها منظمو هذه الحلقة، فنأوا بأقلامهم غالبًا عن التعبير عن الموضوع بكلمته الصريحة «الدين». إلى مثل هذا التعبير الذى قلت عنه إنه تعبير مشترك عن مبادئ المذهب أو الحزب وعن مبادئ الدين...

ولا شك فى أن منظمى الحلقة والذين كتبوا كانوا يقصدون القيم الدينية.. لكنهم جميعًا عدلوا على ذلك بتأثير الخوف من «خيال المآتة» أو «البعبع» الذى نصبه أعداؤنا لنا وهو رمينا بالتعصب، كلما تحدثنا عن ديننا صراحة فاختبأنا وراء

---

(١) ويشمل أهم البحوث التى ألقيت فى الحلقة الدراسية العربية الأولى للتربية وعلم النفس بقاعة مجلس الأمة (الشعب) بمدينة القاهرة فى المدة من ١١–٢٠ من المحرم ١٣٨١ هـ – ٢٤ يونيو – حزيران إلى يوليو – تموز ١٩٦١ م وكان موضوع الحلقة «أسس التربية فى الوطن العربى»، وضمت الحلقة مندوبين من جميع الدول العربية.. وهو من مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م... وقد رجعت إلى التوصيات التى أوصت بها هذه الحلقة، فلم أجد فيها كلمة «الدين أو الإسلام» إلا ما جاء فى التوصية ٢٥ وعلى هذه الصورة الاهتمام بمزاولة النشاط بتنمية القيم الروحية.. وعناية المدرسة بالتربية الدينية كعامل هام فى الاستقرار النفسى والشعور بالاطمئنان.. إلخ.. ثم فى التوصية ٢٦ – «توكيد أن الدين الصحيح لا يتعارض مع العلم.. إلخ»، وهى توصيات بلغت ٩١ توصية.. وتجد التوصية الخامسة كالآتى: العناية بالتعريف بالتراث العربى فى جوانبه المتعددة كالدين واللغة العربية والتاريخ العربى والعلوم الطبيعية.. إلخ» فقط التعريف بالدين على أنه من التراث العربى كالتاريخ؟ يخيل إلىّ أن صورة البعبع كانت تملأ القاعة التى اجتمعت فيها الندوة فتجنبوا الحديث عن الدين إلا بمثل هذه القشور..

وذكرنى ما جاء فى التوصية الخامسة السابقة بما كتبه كاتب فى مجلة الجيش فى دمشق، من: أن المتاحف أصبحت المكان الطبيعى للدين والإمبريالية والإقطاع. وذلك فى الستينيات.

عبارة القيم الخلقية والروحية خوفًا من «البعبع»!!

وإلى هذا الحد بلغ أمرنا!! فى حين أننا نتحدث، وتحدثوا عن القومية العربية، كثيرًا وكثيرًا!! مع أننا حين نتحدث عن الدين وقيمه وأخلاقه لا نريد الإسلام وحده، لأن القيم الدينية والآداب والفضائل الخلقية فى الأديان السماوية واحدة، ونحن ندعو المسلم والمسيحى إلى أن يتمسك كل منهما بالقيم والآداب والفضائل الخلقية «التى يهتم بها دينه، لأنها جميعًا واحدة، وتؤدى إلى إيجاد المواطن الصالح المؤمن بربه، الملتزم بآداب دينه فى حياته..

وهذا خير له وللوطن من تقليد الغرب فى آرائه وآدابه المادية، وتحلله من قيمه الدينية، فلم يحرص الغرب على فضيلة إلا إذا كان وراءها مكسب مادى.

فليس هناك شائبة تعصب مطلقًا حين يتمسك المسلم والمسيحى بدينه، ويتحدث عن آدابه، ويدعو إلى التمسك بها، لأنها فى حقيقتها واحدة ويؤدى التمسك بها إلى تكوين الإنسان الذى نريده..

فما الداعى - إذن - لأن نحيد عن الكلام على الدين وقيمه، إلا أن يكون ذلك خوفًا من «البعبع» و«خيال المآتة» الذى نصبه لنا أعداؤنا وأعداء قيمنا الدينية ويعملون على أن نتخلى عنها ليفترسونا؟!

فى الوقت الذى تمتلئ فيه نفوسهم بالتعصب الحاد ضد الإسلام، ويبنون تصرفاتهم على هذا الأساس معنا[1] لقد آن الأوان لأن نبلغ رشدنا وننفض عنا غبار هذا الوهم ونتحدث عن ديننا وإيماننا، حيث المؤمن المستقل الشخصية الواثق بنفسه، المعتز بربه. الذى يشعر بتفوق ما يدعو إليه على كل ما سواه. وبفاعليته فى إيجاد الإنسان المتوازن فى حياته، الذى يعيش بأخلاقه، ويوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح، فلا يشتط فى ناحية على حساب ناحية أخرى.. ولا نتوارى خلف مسميات كأننا نفعل أمرًا مستقبحًا!!..

إن من هوية وشخصية كل مسلم فى العالم أنه مسلم.. هذا جزء أصيل وثابت

---

(١) راجع كتابى «الإسلام والغرب وجهًا لوجه فصل (صورتان من تسامح الشرق وتعصب الغرب).

من هويته.. هو مسلم عربى، مسلم باكستانى، مسلم فارسى.. إلخ..

فهويتنا هنا فى الوطن العربى: مسلمون عرب أى الإسلام والعروبة، وهويتنا فى أى وطن عربى: الإسلام والعروبة.. يأتى بعدها: مصرى، أردنى، سعودى، عراقى، إلخ..

فالجامع بيننا فى الوطن العربى الإسلام والعروبة..

وكما يحرص كل فرد سوى فى أسرة على الانتساب لأبيه وأسرته، ويعتز بذلك مهما يكن وضع أبيه فى درجات الحياة الاجتماعية، ولا يمكنه أن يتخلى عن أصوله، إلا إذا كان ناقصًا معقدًا..

كذلك يكون من الطبيعى أن يحرص الإنسان على تأكيد إسلامه وإبرازه ثم تأكيد عروبته.

فالإسلام أبونا والعروبة أمنا.. وكما يقول شاعر مسلم:

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

فيضع إسلامه فى وضعه الحقيقى من هويته.. وكذلك عروبته أو جنسيته.. هذا أمر أصبح من مكوناتنا، ومن أبرز ملامحنا التى ينظر إلينا الناس من خلالها، قبل أن ينظروا إلى الأب النسبى من اللحم والدم.. سواء رضينا أم لم نرض..

فالذى ينهزم داخليًّا لشعوره بنقص، ويظن أنه يداريه بمحاولات صغيرة، وأسماء عامة مموهة، هو إنسان أو شخص ناقص فقد احترامه لنفسه.. وبالتالى احترام الغير له..

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

والأمم المتحاربة يحرص كل منها على أن يسلط المعاول على نفسية الأمة الأخرى وجيوشها المدافعة عنها، ليفرغها من داخل نفسها، ويفقدها اعتزازها بشخصيتها وقوتها، ويقتل فيها معنوياتها، وحينئذ يتغلب عليها بسهولة.. ذاك شىء معروف ومسلم به.

والمسلمون أمام أعدائهم والمتربصين بهم، يجدون هذا السلاح النفسى مسلطًا عليهم منذ زمن، ومن نواح شتى،.. بهدف أن يلقوا سلاحهم النفسى ويستسلموا.. ثم يذوبوا، ويفنوا فى غيرهم، حتى وإن بقى لهم اسم فهو اسم فاقد لشخصيته ومعالم هويته، اسم على غير مسمى..

والمسلمون أمام هذا، هم وما يريدون لأنفسهم ومستقبلهم، وما يريدون للميراث الذى ورثوه، وحملوا أمانته عن أسلافهم.. وما يريدونه للدين الذى ارتضاه الله لهم..

وليس هناك مسلم يرضى لنفسه ولأمته الهوان، أو يرضى لميراثه الضياع، ويقر على نفسه بالسفه، أو يرضى التخلى عن دينه، وشرف الانتساب إليه..

ومن هنا كان من البديهى أن يعمل المسلمون لعزة أنفسهم، وعزة أمتهم، والمحافظة على ميراثهم، وتثبيت دينهم فى النفوس.. فى إطار وعاء من عروبتهم ووطنيتهم، ويتخذوا من ذلك خطًا يسيرون عليه، ومقياسًا يقيسون أعمالهم به. ويرفضوا كل المقاييس التى تتعارض مع مقاييسهم شرقية كانت أم غربية.

وإذا كان هذا هو ما يريده المسلمون الآن، وما ينبغى لهم أن يعرفوه، ويعملوا له بصورة جدية، فإن الطريق إلى هذا واضح، وهو التربية من الأساس..

فتقوم التربية فى البيت والمدرسة، والجامعة، والشارع، وأجهزة الإعلام، والمزرعة، والمصنع، على هذين الأساسين عندنا: الإسلام والعروبة، بحيث تكون عنايتنا بهذين العاملين الأساسيين عاملاً مشتركًا، أو روحًا يسرى فى كل نفس، وفى كل اتجاه ومجال.. فى الفرد والمجتمع، حتى تتلاقى الخيوط أو الموجات والخطوط كلها عند هدف واحد، ونقطة واحدة هى: إحياء الدين واللغة العربية فى النفوس، والانبعاث إلى كل عمل بروح الدين، حتى نضمن سلامته وبالتالى ثمرته.. ويلزم لذلك حتمًا أن نصون تفكيرنا وعملنا من أية محاولة لتقليد الغير فيما يمس أو يخدش خطنا المستقيم، الذى نسير عليه.. حتى لا تختلط الموجات وتضيع الأصوات.. فقد كبرنا كما نعتقد، وأصبح التقليد مزريًا بنا..

ومن الطبيعى أن توضع لذلك خطة، تبدأ من البيت، وتواليها المدرسة،

والجامعة، ويشترك فيها الإعلام بأجهزته المتنوعة، ليساعد البيت والمدرسة والجامعة، بالكلمة والصورة، بحيث يعزف الجميع نغمة واحدة، يشارك فيها أو يلتزم بها رجل الشارع، ورجل الأعمال.. حتى لا يرى أو يسمع الطفل، أو الصبى والصبية، والفتى، والفتاة كلمة طيبة تهدمها كلمة خبيثة، ولا صورة جميلة طيبة، تشوهها وتزيل أثرها صورة قبيحة مرذولة..

ويرى الصغار من الكبار القدوة الحسنة فى ذلك، لتصدر عنا جميعًا نغمة واحدة، ونمشى جميعًا بخطوة واحدة، متناسقة ثابتة، ونردد جميعًا ما قاله شاعر الإسلام[1].

نحن بـــالإيمـان نبنى عـــزمنـــا ... لا نبالى الهول أو نخشى الصعابا
وإذا البـاغى رمى فى غـرسنـــا ... جـذوة الظلم جعلنـاهـا تـرابـا

ونردد مع شاعرنا كذلك – اعتزازنا بخطنا المؤمن الذى اخترناه، وننشد للدنيا كلها، نشيد الحياة وعظمتها بالإيمان:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء له قرينا

ونقول لكل مسلم هذه رسالتك:

أَعِدْ من مشرق التوحيد نورا ... يتم بـه اتحـاد العــالمينـا
وأنت العطر فى روض المعالى ... فكيف تعيش محتبسًا دفينا؟
وأنت نسيمه فاحمل شذاه ... ولا تحمـل غبار الخـاملينـا
وأرسِل شعلة الإيمان شمسا ... وصغ من ذرة جبلًا حصينا
وكن فى قمة الطوفان موجا ... ومزنًا يمطر الغيث الهتونـا
أيهــا المـسـلم إن ... الأرض والســمـاء لــك
ضـيــاؤك الـقـدسـى ... أعـلى من شرارات الفلك

---

(١) هو الشاعر محمد إقبال الباكستانى الهندى قالها باللغة «الأوردية» وقالها شعرًا بالعربية الشيخ الصاوى شعلان.. عليهما رحمة الله..

أنت كنز الدر والياقوت فى موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى صوتك العالى وإن لم يسمعوك
قم وانشر التوحيد فى الـ دنيا ووحد الأمم
فأنت خير من دعا وأنت خير من حكم

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾

obeikandl.com